صدفة ان تكون مواقع « المسرح الوطني ، ومسرح بعلبك ، ومسرح البيكاديللي ، ومسرح الاورلي ... وغيرهم » في الوسط التجاري للمدينة ، على خطوط التماس العسكرية ، حيث كانت تتشكل مدينة « الكيان » الكرتونية المسالمة الموحدة ، تنمو وتزدهر ، تصطنع وتؤسس وطن المصارف والاستهلاك والتجارة والزينة ، على انقاض الهوية والانتماءات الفعلية للمجتمع ، وخارج قواه واستقطاباته « الاهلية ـ المحلية » في الداخل . ورغم ان امكنة العرض كانت تؤسس لوحدة تستوهمها وتسقطها ، من ايديولوجية وحدة الكيان ، على انقساماته وتراتباته وصراعاته الفعلية ، رغم ذلك لم تستطع مضامين النصوص المسرحية وكيفية ادائها ومخاطبتها لجمهورها ، من اخفاء عناصر تكونها وتماسكها الداخليين . اذ كانت هذه الاعمال تستلهم وتتحدث خصوصيات ازمة فئات الكيان ، من ضمن غطائه ووهمه الايديولوجي الذي يفترض الوجدة الموهومة ، دون ان تخدش (هذه الاعمال) الغطاء ، لا على مستوى النص والاداء ، ولا على مستوى علاقتها بجمهورها . لذا كانت تحمل خصوصياتها ، فلكلوريا وسياحيا ، كما هي ايديولوجية سلطة الكيان . وتعرضها وسط المدينة الذي يتشكل موحدا على الاستهلاك السريع الذي لا زمن له ولا هوية سوى التجارة والاستلاب .

تجارب اخرى كانت تقوم على فسحة الاندماج الثقافي لفئات الكيان اللبناني ، ولكن هذا الاندماج كان لا يطال الا فئة من المثقفين ، بانفصالهم عن الزمن الشعبي . لذا كانت هذه الاعمال تشتغل على هموم وهواجس النخبة ، وهم يتحدثون من مواقعهم وبلغتهم الثقافية ، مسرحيا ، عن ذلك الزمن الشعبي . كذا بقيت هذه الاعمال التجريبية محصورة في الهامش الثقافي الذي تتيحه ايديولوجية الكيان ، دون ان تتمكن من خرقه ، لانها في مثل هذه الحالة مضطرة الى اعادة النظر جذريا بمادة النص المسرحي ولغته وطريقة ادائه وعلاقته بجمهوره وهويته . فأيديولوجية الكيان تسمح للمثقف بالنقض والنقد بلغته وقيمه ولهجته الثقافية المنفصلة عن القيم واللغة واللهجة الشعبية ، لانه نقد لا يطال مرتكزات هذه الايديولوجية في مواقعها الفعلية . لذا لم ترس هذه التجارب تقاليد مسرحية ذات افق ، فانهارت جميعا مع انهيار الكيان ، وكأنها لم تكن الا وليدة توازنه وسياق تطوره ، مثبتة ان لا فعالية للثقافة الا باستلهامها للزمن الشعبي ، الذي لا تحيا الثقافة ويكون لها معنى ، الا بتماسها معه وتمثله في التفاصيل .

أما الاعمال التي بدأت تظهر استنادا الى افرازات الحرب الاهلية معطياتها الجديدة ، والتي تقوم بانتاجها فرق مسرحية شابة ومبتدئة ، فلا تعدو كونها اعمالا سريعة تعتمد على خطابية درامية مفتعلة ، مستمدة من ضجيج الحرب الخارجي ، مفتقدة الحساسية الفنية والفكرية . وهي بهذه الطريقة تبتذل العمل المسرحي بتحويله الى خطاب انفعالي مسطح عن الواقع . هذه الاعمال والنشاطات ، في اغلبها ، وليدة ظروف استثنائية سريعة ، غير جدية في تعاملها مع الفن عامة والمسرح خاصة ، لانها اعدت في زمن الانهيار والتغيرات والانكسارات العميقة ، لتملأ فراغا محدقا ... ورغم ذلك ، تبدو هذه البداية الخيار الوحيد الملائم لهذه الظروف المرتبكة الراهنة ، وربما حتى انقشاع الافق .

ـ ٢ ـ

الحرب الاهلية التي فجرت توازن الكيان كما فجرت ليبرالية ثقافته الاستهلاكية الرائجة القائمة على تهميش وتهجين ايقاع الحياة الشعبية بحيويتها وقيمها ووسائل تعبيرها ،